

لجميع أنواع الخطوط المتداولة. وإنّ ما أنتجه الخماسي من كراريس ووثائق تعدّ المصدر الأصلي للثقافة الخطية في تونس وفي بقية أقطار الشمال الافريقي.

إننا نحتاج لكتابة سليمة واضحة قبل الكتابة الفنية ولن يتسنى هذا إلاّ إذ كوّن الأستاذ المعلم الذي سينشر البذرة في تلاميذه ويخلق فيهم الرغبة الفنية التي تعطي ثمارها بعد الاختيار. وقد يؤول تطبيق الأمر الجمهوري في إحداث المركز الوطني لفنون الخط<sup>17</sup> إلى تكوين هواة الخط ومحبيه ومنحهم شهادة تؤهلهم لحمل لقب خطاط عن جدارة واستحقاق.

## المدرسة الخطية التونسية

الأستاذ محمد المحجوب

عضو المجلس العلمي للمركز الوطني لفنون الخط (تونس)

شكّلت المدرسة الخطية التونسية في أواسط الثلاثينات بكلّ ما تضمنته من أسماء وعلى رأسهم المرحوم محمد الصالح الخماسي نهجا خطيا تونسيا قائم الذات فرض لونه في المنطقة المغاربية والعربية. ومن هذا المنطلق تصدر المرحوم محمد الصالح الخماسي الطليعة فكان الفنّان ومهندس الحرف العربي بدون منازع قبل المرحومين محمد إبراهيم والسيد إبراهيم في مصر وكامل اليابا في لبنان وغيرهم ممن حاولوا حمل مشعل الخط العربي.

وكان الخماسي يحلم ببعث مركز وطني لفنون الخط الذي رأى النور في عهد التحوّل وكان مؤشرا خيرا لتطوير الفنون الخطية في البلاد المغاربية والعربية.

17) أمر رئاسي عدد 3669 لسنة 1994 مؤرخ في 8/11/1994 يضبط إحداث وتنظيم المركز الوطني لفنون الخط ضمن المعهد الوطني للتراث.

## المنطلقات

ولد الخماسي عام 1910 ، وضمن برمجة الزيتونة تمكّن من أن يعطي للخط العربي كمادة عملية وتربوية المكانة الجديرة به وعلى امتداد سنوات مكّن الطالبين للمعرفة من زاد على غاية من الأهمية، اعتمده تلامذة الخماسي في التدريس في الصفوف الأولى من التعليم الابتدائي.

وبعد الزيتونة دعي للتدريس بالمعهد الصادقي ومدرسة الفنون الجميلة. ولا يزال الرسامون التونسيون يتذكرون الإضافات الإبداعية الجديدة التي قدمها لهم طوال رحلته مع الحرف داخل مدرسة الفنون الجميلة بتونس.

والخماسي سخر وقته وجدله الفني مع يومية «الجيب» و«الورقات الخطية» التي كان يصدرها من حين لآخر وهي التي أسسها وبعثها الى الوجود عام 1945.

و«يومية الجيب» كانت جامعة شاملة ومعجما للثقافة العربية والمختصرة في العلوم الإنسانية والصحيحة.

وإلى جانب ورقاته الإبداعية الخطية أصدر الخماسي «كراسات الخط» الخاصة بالمدرسين في الصفوف الأولى من التعليم الابتدائي. وعلى منوال السلف من المبدعين الخطاطين الذين خلدوا أسماءهم على جدران العماير الإسلامية بالآستانة وأيا صوفيا وكربلاء وجامع أبي حنيفة النعمان والزيتونة وجامع

عقبة، تحرك الخماسي في اتجاه الهندسة الخطية غير عابىء بالنظريات الكلاسيكية القديمة إلى أن دخل عمق الهندسة الخطية من الباب الكبير.

## اعتماد هندسة العمارة كأسلوب في الفنون الخطية

إن المحلل لأثره الفني «يومية الجيب» التي توقفت عن الصدور عام 1979 يلمس أن الخماسي أعطاها من وجدانه الكثير بعد أن خرج بها إلى الساحة الوطنية والمغاربية كمفكرة ثقافية رائدة اعتمدها المتعلمون وغيرهم في حياتهم المهنية، مفكرة اقتصادية وثقافية وعلمية وتربوية وخطية منطلقها الإبداع في خطوطها والزخرفة في مكوناتها. كما أن الدارس للنماذج التي قدّمها يلمس أن الرجل توخى في مشروعه الإبداعي طرائق الوزير الخطاط ابن مقلة الذي أعطى للخط العربي مكانته في عزّ التاريخ العربي. وانتهج أساليب الحافظ عثمان فيما بعد ودفعه توفقه إلى التجديد إلى تطوير النسخ الخطي هندسيا لكي يتكامل الخط مع فنون العمارة.

## الخط العربي يتحدّى الأبجديات الرمزية القديمة

ففي قديم الأزمنة كانت الكتابة تصويرية، هنالك الرموز ولا غيرها للتخاطب. خلال الفترة اللوية بتونس ابتدعت أبجدية ظلت إلى يوم الناس هذا اللغز المحير. إن المبحر في رموز هذه الكتابات القديمة يلمس أن العين الباكية تدل على الحزن والضلوع

البارزة تدل على المجاعة ويتأكد من أن القدامى كتبوا برمزية صعبة التحقيق في حين أن الخط العربي انطلق ليكشف رمزية الرمزيين ويصل الأصدقاء عن طريق الفاتحين.

وتحت حكم الأمويين بالشام والأندلس والعباسيين ومن جاء بعدهم والأغالبة والحفصيين والعثمانيين ازدهرت الفنون الخطية، فبرزت مدرسة عبد الله زهدي والحافظ عثمان ومحمد ابراهيم ومحمد الصالح الخماسي، وتنوّعت الخطوط العربية بعد أبحاث دقيقة لتقدم لنا الكوفي والديواني بكل أنواعه والثلي والنسخي والرقعي والمغربي والأندلسي. وبداخل عمائرنا الدينية، الزيتونة وجامع عقبة، وبداخل مدارسنا التاريخية، السليمانية والباشية، نتأكد من جدلية الحوار الخطي بين الخطاطين وأعمالهم المنجزة الخالدة.

### نظرية خطية تونسية جديدة

إن الخلاصة التي نستنتجها من مسيرة محمد الصالح الخماسي أنه شقّ طريقه بثبات وتغلب على الصعاب وعرف أسماء أثرت دائرة ثقافته الخطية مثل المرحومين حسن حسني عبد الوهاب وبيرم التونسي. وبذلك قدّم نظريته الخطية الجديدة التي من خلالها تمّت المصالحة الخطية مع سائر الفنون التشكيلية،

ومن خلالها اعتبر الخطاط فناً تشكيميا بعد أن استمرت القطيعة حقبات من الزمن.

ورحلة الخماسي (الذي توفي سنة 1992) اقترنت برحلة تلامذته: المرحوم الحبيب بن عياد والمرحوم محيي الدين شيبوب ومحمد المحجوب ومحمد المنوبي بلحاج وعمر العشير وغيرهم ممن لازموا الراحل الخماسي وكونوا مفردة خطية إبداعية منطلقاتها التناغم مع الهندسة المعمارية التونسية، لأنّ الخماسي اخترع لبناء الآثار الخطية الزوايا الهندسية وهو بحق مهندس الحرف العربي. وقد لمست في زواياه الهندسية صدق التمشي التقني الخطي الموصل إلى الآخرة الإبداعية.

بين محمد إبراهيم المصري ومحمد الصالح الخماسي التونسي وتلامذته تواصل إبداعي

وداخل المحيط الذي نشأ فيه الخماسي وتعلّم وعلم برزت عديد الأسماء التونسية مثل الأستاذ البشير العربي، كما برزت في الجانب الآخر من خارطة العربية أسماء تميّزت بحسّها الفني وثقافتها الفنية الجيدة مثل الأستاذ الخطاط محمد إبراهيم الذي أسّس بالاسكندرية مدرسة تحسين الخطوط العربية. وقد لازمت هذا المبدع المصري سنوات عن طريق التحاور التطبيقي في

الميدان الخطي، وكان خير مدعم لجليل الرواد من المبدعين التونسيين القلة. وفي حين نجح الخماسي وقام ببعث شعبة عليا للخطوط العربية بمدرسة الفنون الجميلة في الستينات وكانت نظرتة الجمالية الخطية استشرافية، تمكن محمد إبراهيم من إدخال البعض من خطوطه إلى تونس ليسهم بها في تجميل المعالم الدينية. ورغم هذه المنافسة الفنية الشريفة ترك الخماسي وتلامذته بصماتهم داخل أبواب العمارة الدينية وبالخط الكوفي القديم...

### التجاوز والإضافة

إن الحديث عن المدرسة الخطية التونسية يجرنا إلى الحديث عن معاصري الخماسي: المرحوم الصادق الصدقاوي أستاذ التاريخ والخط والمرحوم أحمد المختار الوزير الذي درس الخط بمصر ودرسه بمدرسة ترشيح المعلمين بالمرسى. والحديث يمتد إلى رواد المدرسة الخطية المصرية والعراقية، لكن الخماسي الاستشرافي في الفنون الخطية تجاوز المؤلف ليحرك الأحرف وليجعل منها علامات مضيئة في التراث الثقافي والحضاري العربي الإسلامي.

فقد يبدو للباحثين في علم الجمالية الإسلامية من خط وزخرف أن الخماسي شكّل العنصر المطور لهذين الفنين وأدخل

إضافات «زخرفية» جديدة واستنطق هندسة الحرف قبل البدء في الإنجاز وحاور اللون المستعمل ليصل إلى مفردات «ثقافية/خطية» متطورة مستمدة من الروح الأكاديمية للخط العربي.

والخط في النهاية هو هندسة روحانية بآلة جسمانية على حد قول «ياقوت المستعصمي». والخط أصيل في الروح وإن ظهر بحواس الجسد على حد قول «الفارابي». وهو ما يؤكد الجانب الروحاني في إبداعات الخماسي الخطية.

### المدرسة الخطية التونسية ذكرة للإبداع الفني

إن المدرسة الخطية التي رفع لواءها المرحوم محمد الصالح الخماسي والتي نجحت في إشراقة المفردة الخطية التونسية حققت اليوم التواصل عن طريقنا وعن طريق البعض من تلاميذه بعد أن خرج الحرف العربي من الدائرة التقليدية الضيقة ليصبح «مفردة ثقافية/تشكيلية فنية» معاصرة، ذلك أن اسم الخماسي سيظل الرمز مثل أسماء أسلافه من عباقرة الحرف العربي الذين جمّلوا وتركوا أروع الإبداعات الخطية ضمن جداريات خزفية عملاقة، في اسم المراكز الحضارية بتونس والقاهرة ودمشق وفاس والجزائر واستانبول وبعديد المعالم الدينية بأهم مدن

## الخلاصة

إنّ المدرسة الخطية التونسية التي عمل من أجلها المرحوم الخماسي بدأت في إعطاء ثمراتها الإبداعية، سواء من طلبته المتخرجين من مدرسة الفنون الجميلة أو من طلبته المبدعين. وأعتقد أنّ مستقبل الجمالية الخطية التونسية سيشهد خلال العشرية الثانية من التحوّل وفي الألفية الجديدة إشراقة حضارية باعتماد السجاد والخزف والرخام وبإنجاز الجداريات الخطية العملاقة داخل البعض من معالمنا الدينية عن طريق مشاريع إبداعية خطية تشرف المدرسة الخطية التونسية.

الشرق الأدنى. وأهم إنجاز تركه الخماسي - وقد لا نستوفيه حقه - بعثه للزوايا والمثلثات واعتماده الهندسة داخل فضاء اللوحة، وهو سرّ نجاحه.

ولأهمية الخط العربي ما قاله «بيكاسو» أحد عمالقة الرسم في القرن العشرين وهو اعتراف ضمّني بقدمية وهندسة الخط : «... إن أقصى نقطة وصلت إليها في فنّ التصوير، وجدت الخط العربي قد سبقني إليها منذ أمد بعيد».

وبالرغم من الفراغ الذي تركه مهندس الحرف العربي المرحوم محمد الصالح الخماسي الذي كان طوال حياته عنوان إشعاع الخط العربي عن طريق جديده السنوي فإن قلة القلة من تلامذة الخماسي تظل في مواقعها الإبداعية تعمل من أجل نحت المفردة الخطية الإبداعية المتطورة. وفي العمل الخطي الفريد من نوعه على صعيد العالم العربي الذي أنجزه الأستاذ الخطاط الصحفي محمد المحجوب خلال ماي 1999 خير تأكيد على بلاغة المفردة الخطية، خاصة إذا انطلق من قواعد هندسية معمارية. وقد شكلت اللوحة : «الرئيس زين العابدين بن علي» النموذج الفريد للطغراء التونسية المتحررة من كل المفردات الجمالية للطغراء العثمانية.